أرجواش المنصورى

للاستاذ عطية الشيخ

مهداة إلى أبطال الفلوجة

خاتمة قرره :

نحن الآن فى السنة الأخيرة من القرن السابع الهجرى، قرن المصائب والآلام على العالم الإسلامى ، فقد اجتاح فيه التتار ممالك آسيا الإسلامية ، وقوضوا بغداد ، وختموا الخلافة الإسلامية أفجع خاتمة . ولولا أن الله قيض لهم من جيش مصر الباسل حاجزاً دفعهم عن بلاد الشام ، لما أوقفهم عن تخريب إفريقية الإسلامية إلا ساحل بحر الظلمات، وقد جعلوا (تبريز) المدينة الإسلامية الفاضلة عاصمة لهم ، استعداداً للقصاص من المصريين، إذا لاحت الفرصة ، وواتت الأحوال .

الخونة الثلاثة :

وقد لاحت الفرصة للتتار ، عندما فر ثلاثة من كبار أمراء مصر ، وقواد جيشها ، من القاهرة إلى تبريز ، واحتموا بقازان ، ملك التتار وحفيد هولاكوخان ، فأكرم وفادتهم وأحسن لقياهم ، وأخذ يفتلهم فى الذروة والغارب ، حتى أطلعوه على العورات ، وهوّنوا عليه أمر المصريين ، وذكروه بدماء آبائه وأجداده ، التى سفكها المصريون فى عين جالوت ، وبينوا له مابين سلطان مصر وشعبه من جفاء ، بسبب وزيره المستبد بالرعية، المحتجن الارزاق ، المضطهد للنابهين والأمراء والعظماء، وقد لحق بهؤلاء الخونة الثلاثة أشياعهم وأذنابهم ، والناقمون على السلطان « المنصور لاجين » نقمتهم ، وزينوا لملك التتار ما زينوا ، وحسنوا ما حسنوا ، حتى صح عزم قازان على مهاجمة مصر والشام، وما بقى من بلاد الإسلام وهكذا باع الخونة الثلاثة : « تبجق وبكتمر والأليكى » بلادهم ،

هذا والمقترنون للسيدة بالفضل فى ميدان الأدب الصوفى كثيرون . والآن يحسن بنا أن نورد نخبة من شعرها الوجدانى المعبر :

لقد أعرضت شاعرتنا عن كل شىء لتقبل على الله وحده. وزهدت فى كل أمر لتأنس بقربه ورضاه . لم يكن فى قلبها متسع لأى شأن من الشئون، ذلك لأنها أحبت الله بكل مافى قلب المرأة من العاطفة المتأججة العميقة، وبكل مافى روحها من الأشواق اللاهبة البعيدة. فجاء شعرها عاطفياً مؤثراً فياضاً بالشجن. ومن ذلك قولها .

انى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أرادجلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وتقول أيضاً :

حبيب ليس يعدله حبيب ومالـــواه فى قلبى نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن عن فؤادى لا يغيب

وتطالع رابعة سفر أيامها وتتلفت معددة ما أتته من الأعمال فترى فى نفسها التقصير ، وترى أن زادها من الأعمال الفاضلة أقل من القليل ؛ ثم تذكر الله ولذة رضاه وسبيل لقائه الطويل المحفوف بالدموع والآلام والمشاق فتخطر لها فكرة العذاب فتهتف بلوعة وحسرة : « إلهى أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ ! » ويضنيها التفكير فتتناول القلم وبيد مرتجفة من الانفعال تسكب على القرطاس مايعتلج فى قلبها الذاكى من الواجد والآلام فتستوى لديها هذه النفثة الرائعة :

وزادى قليل ماأراه مبلغى أللزاد أبكى أم لطول مسافتى ؟
أتحرقنى بالنار ياغاية المنى ؟ فأين رجائى فيك أين مخافتى ؟

وتحدثنا الرواية أن رابعة بعد أن بلغت الثمانين من العمر أصبحت وكأنها الخلال البالى، تتحامل على نفسها من شدة الإعياء. واذا مشت تكاد تسقط من فرط الكلال وعندما اقتربت منيتها أوصت صديقتها المخلصة عبدة بنت أبى شوال بأن تكفنها بعباءة صوفية صحبتها شطراً من حياتها وشهدت قيامها فى الأسحار وتهجدها فى الليالى وتبللت بدموع الخشوع .

فلما جاءها القدر المحتوم سنة خمس وثلاثين ومائة هجرية كفنت بعباءتها الحبيبة وخمار صوفى كانت تلبسه ثم دفنت فى جبل الطور. شرقى القدس .

وهكذا كف قلب رابعة العامر بالحب الإلهى الخالد عن الخفقان ولكن بعد أن وقع أجمل الألحان وأسمى الأنغام .

زهير الكبالى

وظاهروا على قومهم وأهليهم وحاربوا سلطانهم .

فى قصر قازان :

قازان على عرشه ضاحك السن مستبشر ، ومن حوله الخونة الثلاثة ، وقد دخل قائده بولاى مع الرسول ، راجياً أن يكون استدعاؤه لحرب جديدة تروى نفسه المتعطشة للدماء ، وتقر عينيه المغوليتين بمصارع الهيجاء ، وتشنف أذنيه الوحشيتين بصليل السيوف وصهيل الخيول وأنين المكلومين ، وتملأ جيوبه من سلب المهزومين ، وأموال المغلوبين؛ وقد شاع البشر فى وجهه عند سماع مقالة الملك له : « يا بولاى ، أنت قائدى المغوار ، وداهية التتار ، وتعلم مالى ولك قبل المصريين من ذحول وثارات ، تنادى بها دماء آبائى وآبائك المسفوكة بسيوفهم ، المطلولة برماحهم ، فقد دمنا الدنيا وداسونا ، وأذللنا الشعوب وأذلونا ، ولم يكفهم رد غاراتنا ، حتى هاجونا فى عقر دارنا ، وغزونا فى بلادنا ، وما تزال سيوفهم تقطر بدمائنا ، وقد آن الأوان لنأخذ بالثأر ، وننكيل بالصاع صاعين ، ونرد لهم الدين » ثم اشتد غضب قازان وتطاير الشرر من عينيه ، وصاح صيحة منكرة ، كاد من هولها يغشى على كل من فى المنزل : « يا بولاى ، إجمع فرسان التتار ، وأبطال التركمان ، ورماة المغول ، ولا تدع ضارباً بسيف ، ولا طاعناً برمح ولا رامياً بسهم إلا جيشته » ثم سكت قليلا وقال :

« يا بولاى الحرب خدعة ، والوقعة يجب أن تكون فاصلة ، والعدو صعب المراس ، تعوّد أكل لحومنا ، واستمرأ شرب دمائنا ، فاستعن فى هذه الواقعة بجميع أعداء المصريين ، من صليبيين وروم وأرمن ، واضرب المصريين ضربة تنسى العالم هزائمنا المتوالية أمامهم ، وتحسم الأمر بيننا وبينهم . »

أجاب بولاى بالسمع والطاعة ، وسجد للملك وقبل الأرض بين يديه ، ثم قام وهم بالانصراف ، فاستدعاه الملك ثانياً وقال له : يا بولاى ، لا تعبأ بالوقت ، فأنا لا أطلب المعجل ، وإنما أطلب النصر ، فلا تتحرك بالجيش إلا إذا تم استعدادك ، وصار النصر منك على طرف الثمام ، واقطع على المصريين الأخبار حتى تفجأهم غير مستعدين » .

الشام فى فزع :

تم استعداد بولاى وتحرك جيشه نحو الشرق ، ووصلت الأنباء بذلك بلاد الشام ، بعد أن كشف السر ، وعرف عزم التتار ، فجفل أهل الشام ، وتفرقوا فى السواحل ، وتشتتوا من الفرات إلى غزة .. وعظم خوف الناس وسياحهم على الإسلام وأهله » ولولا أن سلطان مصر بعد أن بلغه الخبر أخذ يبعث البعوث لطمأنة خواطرهم ، ما بقى منهم فى الشام أحد ؛ لأن أهوال التتار فى البلاد المغلوبة معروفة للخاص والعام ، وهم وشيكو عهد بمذابح بغداد وفظائع هولا كوخان فى العراقين ، لم يرحم شيخاً ولا طفلا ولا امرأة ، ولا عف عن منكر ، ولم يبق من البلاد التى اجتاحها إلا ما تبقى النيران من الهشيم ، والسيول الجائحة من الجحيم .

فى أرباض حمص :

وتحرك المصريون إلى بلاد الشام ليحموها من الطغاة الطارئين ، وصرت الجيوش المصرية على دمشق ، متجهة صوب الشمال ، وابتهل الناس لها بالدعاء ، والتقى الجمعان بقرب حمص ، وحمل المصريون على التتار حملة صادقة ، فقتلوا منهم نحو خمسة آلاف دون أن يقتل منهم إلا قليل . وفكر التتار فى الفرار ، وزلزلوا زلزالا شديداً .

بعد أن لاح النصر :

ما أعجب شأن الحروب ، وما أكثر التشابه بين حوادث التاريخ ، وما أشبه واقعة حمص بغزوة أحد ، فإن المصريين بعد أن لاح لهم النصر ، ابتلوا بتخاذل مفاجىء ، « واتكل بعضهم على بعض .. فانهزمت الميمنة أولا ثم تبعها جميع العساكر ، وأمعنوا فى الهزيمة ، حتى رمى الجند خوذهم وسلاحهم . وأخذوا يغيرون أزياءهم ، ويحلقون شعورهم تنكراً من العامة الذين كانوا يوبخونهم ويشتمونهم كلما مروا عليهم منهزمين أمام التتار »

أحزان دمشق :

بلغت كسرة المصريين دمشق « فخرجت المخدرات حاسرات لا يعرفن أين يذهبن ، وأطفالهن بأيديهن ، ومن استطاع النجاء بنفسه ، فر تاركا أهله وولده . وتشاور جماعة من عظمائها فى الخروج إلى التتار طلباً للصلح قبل أن يدخلوا دمشق عنوة ، وكان ممن يرى هذا الرأى ، قاضى القضاة ابن جماعة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية . ثم وصل خمسة من كبار التتار الى دمشق ومعهم فرمان بالأمان ، قرىء على باب الجامع الأموى ، فاطمأن الناس ، وسكت

عنهم الفزع ، وزاح الهلع ، وانتظروا الغيث من هذا البرق الخلب .

إذا دخلوا قرية :

تدفقت جموع التتار على دمشق يتقدمها الخونة الثلاثة واستسلم لهم بلد عز عليهم أيام الظاهر بيبرس مناطه ، فهل وفى الملوك بعهدهم ؟ وهل أغنى الفرمان عن الدمشقيين شيئاً ؟ إن الملوك إذا دخلوا قريه أفسدوها وجعلوا أعزه أهلها أذلة. وكذلك فعل التتار، وهم أولى من غيرهم بقبيح الفعال،عند من لم يكن بينهم وبينه ثأر ، فما بالك وقد تمكنوا من بلد تقطعت على أبوابه فى الماضى القريب أوصالهم ، وأريقت دماؤهم ، وزينت أسواره بالرماح المشرعة عليها رءوس قتلاهم ؟ لقد عاثوا فى دمشق وما حولها من القرى ، «المساجد تشرب فيها الخمور ، وتهتك الستور ، وتفتض البكور ، ويقتل المجاورون ، ويؤسر الخطباء والمؤذنون ، بل على قبر خليل الرحمن ، وفى حرم البيت المقدس ، هتكت النسوان ، وعلقت الصلبان »

هاتان الطائفتان :

والطائفتان هم أهل الدنيا من علماء الدين والمتصوفة، ماخطبهم ؟! مردوا على النفاق ، فواتتهم بلاغته ، وعنت لهم فصاحته، لايجاوز الفقه حناجرهم ، ولا التصوف ألسنتهم ، طرفت الدنيا أعينهم، وبدا الترف فى ملبسهم ومسكنهم وما كلهم، واستعبدتهم الشهوات ، فكانوا أنكى على الإسلام فى كل عصوره من الأعداء المغيرين . ومن العجب العاجب أن الحجج والبراهين والأدلة تتدفق على أقلامهم وألسنتهم ، فمنذ عهد قريب أفتوا للمسلمين بأن هولاكو أولى بالملك من الخلفاء العباسيين ، « لأن الملك يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » وهم الآن ما كاد المقام يستقر بالتتار فى دمشق حتى أذاعوا على جميع المساجد أن يدعى لقازان الكافر التترى فى الجمع والأعياد بالدعاء الآتى : « مولانا السلطان الأعظم ، سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود قازان » فهل تعجب بعد ذلك إذا سمعت ممن خلفهم فى العصر الحديث، عبدالله نابليون ، ومحمد هتلر ، وسيف الإسلام موسوليني ! أما إمام المتصوفة الشيخ الحريرى ، فقد سار أبناؤه « الحق والبن » فى ركاب التتار، يأكلون من فضلاتهم ويوطدون لهم المقام فى بلادهم ، ويمكنونهم من رقاب ذويهم ، وما أحسن قول الجوزى أحد شعراء ذلك العصر :

بُلينا بقوم كالكلاب أخسة ... علينا بغارات المخاوف قد شنوا

هم الجن حقاً ليس فى ذاك ريبة ... ومع ذا فقد والاهمُ الحق والبنّ

وقول الوداعى:

أتى الشام مع قازان شيخ مسلك ... على يده تاب الورى وتزهدوا

تخلوا عن الأموال والأهل جملةً ... فما منهمُ إلا فقــير مجردُ

ولا يفوتنك جمال التورية فى البيتين الأخيرين .

حاج الحرمين :

ما أكثر ما خدع المسلمون بالألقاب ؛ فاستغلها للتمكن منهم أعداؤهم ، وهاهم أولاء التتار يكافئون قبجق أحد الخونة الثلاثة بأن يولوه من قبلهم على الشام ، ويتركوا معه جيوشهم بقيادة بولاى ، ليفتح ما بقى بالخديعة كما أغنت عن الحرب ، استبقاء للجيوش ، حتى تدخل مصر قبل الكلال ، وضياع الوقت فى الحصار والنضال ، وأخذ قبجق الخائن ، يرسل إلى البلاد المنيعة طالباً التسليم ، ويوقع على كتبه : «سلطان الشام ، حاج الحرمين ، سيف الدين ، قبجق » فيالمهازل الحجاج وسيوف الدين !

بطل مصرى :

علمت جميع مدن الشام الحصينة أن لا طاقة لها بالصمود أمام التتار ، بعد أن سلمت دمشق ، وثبتت بها قدم التتار ، ودُعى لسلطانهم فى المساجد ، وسار فى ركابه الحق والبن ، وارتد الجيش المصرى إلى ما وراء غزة . لهذا أذعن بلد إثر بلد ، واستسلم حصن بعد حصن ، وظن التتار أنه قضى الأمر ، ولم يبق عليهم إلا التوجه إلى مصر ، ليدخلوها آمنين ، ولكن أيصح ذلك وما زال «أرجواش المنصورى المصرى » فى أقرب المواطن إليهم ، معتصما بقلعة دمشق ، ويأبى مع البقية الباقية من المصريين التسليم ؟ لقد استهانوا به فى أول الأمر لأن دمشق نفسها فى أيديهم ، ويكفى أن يقطعوا عنه الميرة والذخيرة ، ليتقدم بنفسه طالباً التسليم ، ولكن خاب ظنهم ، ورأوه ينقض عليهم من القلعة ، الفينة بعد الفينة ، ليستخلص من أيديهم ، ما يقيم أوده ، ويعينه على قتالهم . آنئذ لجأ العدو إلى الخديعة والليان، فتوجه الثلاثة الخونة يتزعمون

قبجق إلى القلعة ، وهم زملاء سابقون فى السلاح لأرجواش ، فنادوه ونصحوه بالتسليم . ولما رفض فى إباء وشمم وبخوه ما شاء لهم البذاء ، واتهموه بخيانة المسلمين وإهدار دمائهم ! وقالوا له : « دم المسلمين فى عنقك إن لم تسلمها »

لا تعجب أيها القارئ الكريم ، فما زال الباطل يتطاول على الحق ، وتقلب السياسة الأمور ، حتى يأذن الله وينكشف للناس ما كانوا عنه غافلين ، ويندمون على جهلهم حين لا ينفع الندم . أتدرى بماذا أجاب أرجواش الخونة الثلاثة !

لقد قال لهم : « دم المسلمين فى أعناقكم أنتم الذين خرجتم على بلادكم ، وتوجهتم إلى قازان ، وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها من بلاد الإسلام » وسكت عند ذلك ، وكان يستطيع أن يوسعهم سباً ، ولكن من يحسن العمل دائماً لا يُحسن القول ، وأبطال النضال يغنيهم الحسام عن الكلام ، وقديماً قال قائد عربى لم يُفتح عليه بكلام حين وقف للخطبة :

إذا لم أكن فيكم خطيباً فإننى   بسيفى إذا جد الوغى لخطيب

وقال الرشيد ملك العرب لنقفور ملك الروم رداً على تهديده :

« الجواب ما ترى لا ما تسمع »

فى قلعة دمشق :

تهيأ أرجواش للحصار والقتال وأجمع أمره على الموت دون التسليم ، وشد أزره من معه من أبناء مصر وأبطال النيل ، وصح عزم الجميع على ألا يدخل القلعة تترى وفيهم عرق ينبض ، وتوالت وثباتهم من القلعة على دمشق لأخذ ما يحتاجون . .

ومن تكن الأســد الضوارى جدوده
يكن ليــله صبحا ومطعمه غصبا

وترادفت رسل غازان إلى أرجواش بالوعد مرة وبالوعيد والتهديد مرة أخرى ، وطال الأخذ والرد ، وخطباء المساجد يدعون على المنابر لسلطان الإسلام والمسلمين غازان ، وكل شيء حول أرجواش يدعو إلى التسليم ، ولكنه هو ومن معه لا يزدادون إلا عزما وتصميما وثباتاً ويقيناً .

أغنى عن أمة :

نسى التتار أمر الهجوم على مصر ، واستحوذ الخوف عليهم من قلعة دمشق . إنها شوكة فى جنبهم وهلاك مشرف عليهم ، ولا مقام لهم فى دمشق نفسها ما لم يقتحموها على من فيها ، وقد يئسوا من جدوى السياسة والخداع ، وبات لا يطرف عينهم نعاس ، ولا يغشى جفونهم الكرى ، ولا يذوقون النوم إلا غراراً ، خوفاً من هجمات من بالقلعة ، وكانت تزداد وتشتد ، كلما أمل التتار الإذعان والتسليم ، فجاءوا جيشاً وأطبقوا على القلعة من جهاتها الأربع ، وهجموا عليها هجمة رجل واحد بخيلهم ورجلهم . ولا يحسن أحد كالتتار مثل هذا الهجوم الخاطف . ورمت المجانيق بأحجارها ، وخبت الخيول بفرسانها ، وأسرعت المشاة بعجلاتها ودباباتها ، كأنما ثار بركان ، أو اشتعلت نيران ، أو طغى طوفان ، وأظلم الجو من الغبار المتطاير ، والمثير السائر ، وما هى إلا ساعات حتى انجلت الموقعة ، عن القلعة الرهيبة سليمة حصينة كعملاق جبار يعبث بشسع نعله أطفال ، أو كالهرم الخالد تتهدى عليه حيات الرمال ، بل كثهلان تغدو وتروح عليه النمال . ثم انجلت الموقعة عن بحار من دم التتار ، وأكوام من أشلائهم وتلال من رءوسهم ، أما أرجواش وصحبه فهم فى قلعتهم سالمون ، وبالنصر فرحون مستبشرون « فلله درهم ما كان أثبت جأشهم وأقوى جنانهم . »

احكمى يا مصر :

لقد كانت الموقعة هائلة ، وكان وقعها فى نفوس التتار أهول ، فلم يطيقوا فى الشام كلها بعد ذلك بقاء ، وولوا الأدبار بمن بقى منهم إلى بلادهم هاربين ، وفى إثرهم قبجق الخائن وصحبه ، ونزل أرجواش من القلعة واستولى على دمشق ، وأعاد الخطبة لسلطان مصر وزينت البلاد ابتهاجا بهذا النصر ، وطار الحمام الزاجل بالنبأ إلى قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، فعاد جيش مصر إلى الشام ، وهناك أمام قلعة دمشق انحنى قائد الجيش المصرى العائد « سلار » لحماة مصر والشام ، وأبطال قلعة دمشق ، تمجيداً وتعظيما « وفرح أهل الشام قاطبة ، وعلموا أن فى عسكر الإسلام القوة والمنعة ، ولله الحمد »

بأيكم المفتون :

أتدرى بماذا ينعت العلماء والمتصوفة أرجواش ؟ إنهم يصفونه بالغفلة والجنون ، ويكثرون التندر عليه والتهكم منه ويسوقون فى ذلك حكايات كثيرة برهانا على صدقهم ، وهاك حكاية واحدة لا شك